الدرس الرابع :

أتاكم رمضان

روى الطبراني ، عن عبادة بن الصامت ﷺ ، أنَّ رسول الله ﷺ ، قال يومًا ، وقد حَضَر رمضان : « **أتاكم رمضان ، شهر بركة ، يغشاكم الله فيه ، فيُنزل الرحمة ، ويحطُّ الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ، ويباهي بكم ملائكته ، فأَرُوا الله من أنفسكم خيرًا ، فإن الشقيَّ مَن حُرم فيه رحمة الله عز وجل** »[1].

مشوِّقات ربانية :

يُرغِّب النبيُّ ﷺ أمته في استقبال هذا الشهر الكريم ، بأفضل ما يكون الاستقبال ، كما يستقبل الإنسان ضيفه العزيز عليه ، الحبيب إليه ، الغائب عنه ، كذلك يستقبل المؤمن رمضان . . . يستقبلون هذا الشهر المبارك كما وصفه النبيُّ ﷺ ورغب فيه : « شهر بركة ، يغشاكم الله فيه »، أي يحوطكم برعايته وعنايته . ومن مظاهر هذه الرعاية والعناية أن الله يُنزل فيه الرحمة ، ويحطُّ فيه الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء .

تنزل رحمات الله في هذا الشهر ، فيَغفر الذنوب ، ويكفِّر السيئات ، فرصة للمسلم يتطهر فيها من أدرانه ، ومن غفلات قلبه ، ومن أرجاس حسِّه ، ومن أهواء نفسه ، ومن آثار خطاياه ، طوال أحد عشر شهرًا مضت عليه .

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٢٢٣٨) ، عن عبادة بن الصامت ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير وفيه محمد بن أبي قبيس ولم أجد من ترجمه (٣٤٤/٣) ، وقال المنذري في الترغيب : رواه الطبراني ورواته ثقات ، إلا أن محمد بن قيس لا يحضرني فيه جرح ولا تعديل (٦٠/٢) .

فُرصٌ لتكفير الذنوب :

الله سبحانه وتعالى من فضله وكرمه جعل للمسلم فرصة يومية بالصلوات الخمس ، يغتسل فيها كما يغتسل الإنسان في النهر الجاري ، خمس مرات ، فإذا بقي بعد ذلك من دَرَنه ، تأتي فرصة أسبوعية ، هي فرصة الجمعة ، وصلاة الجمعة ، ولقاء الجمعة ، الذي جعله الله عيدًا أسبوعيًا للمسلمين ، فإذا بقي بعد ذلك من أدرانه شيء ، تأتي الفرصة السنوية ، الموسم الدوري ، شهر رمضان ، فيحطُّ الله به الخطايا عن عباده ، ويُخرجهم من هذا الشهر طاهرين مطهَّرين .

« مَن صام رمضان إيمانا واحتسابا : غُفر له ما تقدَّم من ذنبه »[1]، و« مَن قام رمضان إيمانا واحتسابا : غُفر له ما تقدَّم من ذنبه »[2].

ومن هنا جاء في صحيح مسلم ، عن النبي ﷺ : « الصلواتُ الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر »[3] .

دعوة الصائم لا ترد :

يُنزل الله الرحمة في رمضان ، ويحطُّ الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، جاء في الحديث عن النبي ﷺ :« ثلاثة لا تردُّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يُفطر ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول : وعزَّتي ، لأَنْصُرنَّك ولو بعد حين »[4] .

دعوة الصائم ، قريبة من الإجابة ، مرجوة الاستجابة . . . وخاصة في آخر اليوم ، عند الإفطار ، فقد جاء في الحديث : « إنَّ للصائم عند فطره دعوةً لا تردُّ » ، وكان عبد الله بن عمرو راوي هذا الحديث يجمع أولاده عند الإفطار ويدعو الله عز وجل

(١، ٢) سيأتي تخريجهما وشرحهما في الدرس السادس والعشرين صـ ٢٠٦ .

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥) ، والترمذي في الصلاة (٢١٤)، عن أبي هريرة .

(٤) رواه أحمد (٨٠٤٣)، وقال محققوه : صحيح بطرقه وشواهده ، والترمذي في الدعوات (٢٥٢٢) ، وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه (١٧٥٢)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وابن حبان (٣٤٢٨)، ثلاثتهم في الصيام ، والبيهقي في الكبرى كتاب الاستسقاء (٣/٣٤٥) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٩٧) .

وكان من دعائه أن يقول : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي[1].

ولا عجب أن ورد في أثناء آيات الصيام في سورة البقرة تلك الآية الندية الرقيقة ، آية الدعاء : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦)، قبلها آيات الأحكام . . . أحكام الصيام ، وبعدها بقية آيات الصيام والاعتكاف . . . كل هذا ليرغبنا الله سبحانه وتعالى في أن ندعوه ونحن صائمون ، وندعوه عند الإفطار .

يحطُّ الله في هذا الشهر الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، وينظر الله سبحانه وتعالى إلى تنافسنا في الخيرات ، وتسابقنا في الطاعات ، فيباهي بعباده المؤمنين ملائكة السماوات ، يقول : انظروا إلى عبادي كيف تركوا شهواتهم ولذائذهم ، وكل ما يرغبون فيه؟ تركوا ذلك من أجلي .

يباهي الله بنا ملائكة السماوات ، فأَرُوا الله من أنفسكم خيرًا .

الشقيُّ المحروم :

هكذا يوصينا رسولنا ﷺ ويقول في ذيل الحديث : « فإنَّ الشقيَّ مَن حُرم فيه رحمة الله عز وجل » .

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ (الصافات:٦١)، ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (المطففين:٢٦)، ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ (الحديد:٢١) ، ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾(آل عمران:١٣٣)، هذا هو ميدان التسابق ، وهذا هو مجال التنافس ، ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٤٨).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٧٥٣) ، والحاكم (٤٢٢/١) ، وقال : إسحاق هذا إن كان ابن عبد الله مولى زائدة فقد خرج عنه مسلم ، وإن كان ابن أبي فروة فإنهما لم يخرجاه ، والبيهقي في الشعب (٣٩٠٤) ، ثلاثتهم في الصيام ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٣٨٧) .

هذا هو الموسم الذي مَن حصَّل فيه خيرًا من الخيرات ضوعف له أضعافًا لا يعلمها إلا الله عز وجل .

مَن لم يُغفر له في رمضان فمتى يُغفر له :

لهذا يقول نبينا وحبيبنا محمد ﷺ : « فأروا الله من أنفسكم خيرا ، فإن الشقي مَن حُرم في هذا الشهر رحمة الله عز وجل » .

روى أنس بن مالك ، أن النبي ﷺ قال وقد حضر رمضان : « إن هذا الشهر قد حضركم ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، مَن حُرمها فقد حُرم الخير كله ، ولا يُحرم خيرها إلا محروم »[1] .

وعنه أنه ﷺ قال : « بُعدًا لمَن أدرك رمضان ولم يُغفر له ، إذا لم يُغفر له فمتى؟! »[2] .

أي إذا لم يغفر له في رمضان ، والمغفرة تُوزَّع ليل نهار ، والمنادي ينادي : « يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر »، إذا لم يُغفر له الآن ، فمتى يُغفر له؟!

إنَّ الذي يمرُّ عليه رمضان وهو لا زال غارقًا إلى أذنيه في شهواته ، لا زال سادرًا في معاصيه ، لا زال مطموس البصيرة ، محجوب القلب عن الله عز وجل ، مُغلق الباب بينه وبين ربه ، مثل هذا الإنسان المسكين ، هيهات هيهات أن يُغفر له . . . إذا لم يُغفر له في رمضان ، فمتى يُغفر له؟!

لقد صعد النبي ﷺ ، المنبر يومًا فسمعه الصحابة يقول : « آمين . آمين . آمين » . فلما نزل ، قالوا : يا رسول الله ، إنك حين صعدت المنبر قلت : آمين . آمين . آمين . قال : « إن جبريل أتاني فقال : مَن أدرك شهر رمضان ولم يُغفر له دخل النار ، فأبعده الله ، قل : آمين . فقلت : آمين »[3] .

---

(١) سيأتي تخريجه وشرحه في الدرس العشرين صـ ١٦٨ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الصيام (٨٩٦٣) ، والطبراني في الأوسط (٧٦٢٧) ، عن أنس ، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٥٩٣) .

(٣) رواه أبو يعلى (٥٩٢٢) ، وابن خزيمة في الصيام (١٨٨٨) ، وقال الأعظمي : إسناده جيد ، وابن حبان في الرقائق (٩٠٧) ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، والطبراني في الأوسط (٨١٣١)، والبيهقي في الكبرى كتاب الصيام (٣٠٤/٤) ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٧) .

وفي رواية قال ﷺ : « رَغِمَ أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان فانسلخ قبل أن يُغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يُدخلاه الجنة »[1].

فيا خيبة هذا المحروم البائس ، الذى دعا عليه أمين الوحي جبريل ، وأمَّن على دعائه سيد الخلق محمد ﷺ .

بُعْدًا لمَن أدرك رمضان فلم يُغفر له ! !

تُجار الدنيا . . . وتُجار الآخرة :

فهذا هو موسم المغفرة ، هذا هو موسم المتقين ، ومتجر الصالحين ، وربيع المؤمنين ، هذا هو الموسم ، موسم تُجار الآخرة .

وللدنيا تُجار ، وللآخرة تُجار .

تُجار الدنيا يركبون الأخطار ، ويجوبون الفيافي والقفار ، ويركبون الأجواء والبحار ، ويواصلون سهر الليل بعناء النهار ، كل ذلك في سبيل ربح مادي ، قد يكون وقد لا يكون .

وإذا كان هذا الربح ، فقد ينتفعون به وقد لا ينتفعون . . .

وإذا انتفعوا به حينًا ، فقد يدوم لهم النفع وقد لا يدوم . . .

وإذا دام لهم ، فإنهم أنفسهم لا يدومون . . .

فهذا هو شأن الحياة ، وتلك هي سُنَّة الله في هذه الدنيا . . .

هب الدنيا تساق إليك عفوًا ... أليس مصير ذاك إلى انتقال؟

وما دنياك إلا مثل ظلٍّ ... أظلَّك ثم آذن بالزوال

وصدق الله العظيم : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ (الحديد: ٢٠).

---

(١) رواه أحمد (٧٤٥١) ، وقال محققوه : صحيح وهذا إسناد حسن ، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٥) ، وابن حبان في الرقائق (٩٠٨) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٧/٣) .

تُجار الدنيا يفعلون ذلك ، أما تجار الآخرة فهم : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (النور:٣٧)، إنَّ تجارتهم ليست في اللحم ، ولا في الأرز ، ولا في التمر ، ولا في البُر ، ولا في الثياب ، ولا في المتاع ، إنَّ تجارتهم إنما هي في الطاعات والقُربات . . . أسواقهم المساجد ، وفُرصهم ساعات السَّحر ، وأيام رمضان ولياليه ومواسم الخير .

هؤلاء هم تُجار الآخرة ، الذين يجدون في هذا الشهر موسمًا يُقبلون فيه على الله ، يصومون فيُحسنون الصيام ، ويقومون فيُحسنون القيام .

لا يصومون صيام البطن والفرج فحسب ، بل صيام الجوارح عن كل ما يغضب الله .

ويقومون القيام ، الذي تخشع فيه القلوب ، وتطمئن فيه الأصلاب ، وتستقر فيه الجبهات ، فإنما يقبل الله الصلاة الخاشعة المطمئنة ، هؤلاء هم تُجار الآخرة ، الذين يجدون في هذا الشهر ربيعًا ، وموسمًا ، ومتجرًا ، فيتزوَّدون منه لقلوبهم وأرواحهم وأنفسهم ، زادًا يُمدُّهم ، وينفعهم لأحد عشر شهرًا .

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من هؤلاء ، الذين قال في شأنهم في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر:٢٩،٣٠).

* * *